

أيها الإخوة الكرام أهني نفسي أولاً بأن منحني الله -جلّ وعلا- حضور هذه المناسبة التي فيها عبّق الأصاله والثبات، وفيها عبّق الرؤية الحقّة لمنهج واضح لآحِب سار عليه الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم بإحسان إلى هذا الزمان ﴿وَلَتَكُنَّ الَّذِينَ هَدَيْتُهُمْ اللَّهُ﴾ [الزمر: ١٨]، هذا الأمر أهنيّ أيضاً به جميع الحاضرين بهذه المناسبة -مناسبة افتتاح مؤسسة ديوان المسلم- التي تضمّ عدداً من الفعاليات بين نشاط دعويّ ونشاط تعليمي وتدريب ونشاط عبر الإنترنت.. وغير ذلك من الأنشطة.

لاشك -أيها الإخوة- أن وجود هذه المؤسسة اليوم هو مكسبٌ لنا جميعاً لا لأشخاصنا؛ لكن لما تحمله القلوب من الإذعان للرغبة في نصرة هذا الذين عبر منهج واضح.

فالكلمات التي قالها فضيلة أئينا الكبير الشيخ الأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر المشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم هي كافية ولا مزيد عليها في وضع الإطار الواضح الحق فيما نحتاجه اليوم بين أصالة أتباع المنهج، وما بين المعاصرة في الدعوة.

وهذان الأمران الناس فيها سلكوا مسالك، ولا بدّ من حمايةً لجناب التوحيد، وحماية جناب التوحيد حماية له عقيدة وحماية له أيضاً وسيلة؛ لأنّ الوسيلة إلى الأمر تتبعه ثناءً وذنماً مشروعية وعدم مشروعية.

أسأل الله جلّ وعلا أن يبارك في هذه المؤسسة، وأن ينفع بها، وأن يبارك في جهود فضيلة الشيخ ناصر وجميع تلامذته ومن معه والعاملين في هذه المؤسسة -مؤسسة ديوان المسلم- وأن يجعلهم هداة مهتدين، وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى.

أيها الإخوة، لاشك أنّ المتأمل فيما لقيه الأنبياء والمرسلون في دعوتهم من عناد وإعراض، ومن مواجهة وإيذاء، ومن كلام وإسفاك ظاهر بين، وسورة الدعوة كما سماها بعض أهل العلم؛ التي هي سورة يوسف قال جلّ وعلا في آخرها: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُنْشَرِكِينَ﴾ وفيها ذكر أحوال الدّاعية المتنوعة، وفيها من العلم ما يدخل في مدرسة الدّاعية الميدانيّة، وقد تكلم عنها شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عدّة وهو حقيقٌ بحلّته تعالى بكثير مما اشتملت عليه من معاني ودروس وعبر.

هذا الزّمن هو عينه الزّمن السّالف الليل والنهار لا يتغيّران، والبشر رجالا

ونساء هم هم، والوسائل تختلف، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

أشار الشيخ ناصر في كلمته إلى وجود أمرٍ لا خفاء به وهو: الصّراع الدائم بين الحق والباطل، بين المنهج والانفلات، بين العلم والجهل، بين دعوة الأنبياء والمرسلين على فهم السلف الصالح، وبين من يدعي نصرة للدين وليس على منهج قويم، وهنا ينبغي لنا أن نستحضر أموراً:

أولاً أنّ صبر الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه- جعلهم لا يستخفّنهم الذين لا يوقنون؛ لأنّ الله جلّ وعلا قال قال للنبي ﷺ وأصحابه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم] وبين الثبات على المنهج والانسحاق لاستخفاف الذين لا يوقنون بينهم صلة وثيقة، فلا ثبات على المنهج مع الصّيرورة إلى قبول استخفاف الذين لا يوقنون في الحكمة وإدراك الحق والثبات عليه يحتاج إلى صبر في اللسان وفي الأفعال، وهذا زمامه الصبر في مدارك العقول في رؤية الأشياء حاضراً ومستقبلاً والحكمة من ورائها.

الأمر الثاني أنّ حكمة الله بالغة مبلغها ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن حكمته أن جعل هذه التقلّبات الكبيرة في عالمنا المعاصر، وخاصة ما يتصل بالاتصال العالمي المفتوح الذي غيّر كثيراً من ثوابت الناس وعقائدهم ومعلوماتهم فسار بهم إلى طرقٍ ليست إلى الشريعة بسبب، فهذا الأمر اقتضته حكمة الله جلّ وعلا؛ لكن أيضاً اقتضى أمر الله الشرعي أن يتعاون السّابقون في دينهم بعيداً عن كلّ مؤثّر، أن يتعاونوا على البر والتقوى، فلا مجال في هذا الزّمن مع هذا الوصف الذي هو حاضرٌ أمامكم بما تعيشونه بأحوال العالم كلّ لا مجال للانفراد، لا مجال لإطار معيّن مهما كان أن يعمل، لا إطار رسمي، ولا إطار فتوي، ولا إطار إقليمي، ولا إطار علمي؛ بل لابدّ تبرئة للذمة وخلوصاً من المسؤولية أن يجتمع الجميع على كلمة حقّ وصواب، وأن يتعاونوا فيها على نصرة هذا الذين نصرة للعقيدة الصّحيحة وللمنهج ونصرة للإسلام والسنة.

وهذا يقتضي منّا الابتعاد عن كثير من حبّ الذات؛ لأنّ حبّ الذات يؤدي إلى حبّ الإنفراد وحبّ الغلبة وحبّ السيطرة، وهذا ليس من سِمَةِ المؤمن الذي يرجو أن يكون داعياً إلى الله على منهاج رُسله عليهم صلوات الله وسلامه، محمد -عليه الصّلاة والسّلام- قام بتبليغ الرسالة ولكن معه أصحاب ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، كلّ نبيّ كان معه حواريون، «ما بعث الله من نبي إلا كان له من أمته حواريون يهتدون بهديه ويستنون بسنته» رواه مسلم في «الصّحيح»، وهذا الأمر يقتضي منّا إصلاحاً للمنهج التّفكير في التّعاون، وإصلاحاً للمنهج اللّسان في الكلام مدحاً وذنماً، ويقتضي منّا إصلاحاً لحركة القدمين وحركة اليدين في نصرة الله جلّ وعلا.

فلا مجال للانفراد، وهذه الأمة أمة متكاملة ولم تقوَ إلا بالتّكامل، ولذلك جاء في الحديث الذي رواه مسلم في أواخر «صحيحه»: «إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيْسُ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنَّ بِالْتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ».

قال أهل العلم: أيس ولم يؤيس؛ أيس لما رأى عزّ الإسلام واجتماع الكلمة واجتماع الصحابة وخروج السرايا وغلبة كلمة التوحيد على كلمة الشرك، أيس، وهو لا يعلم الغيب، ولم يؤيسه الله جلّ وعلا؛ لأنه جعله إلى يوم القيامة ممكناً من احتناك ذرية آدم، لذلك لما صارت له جولة عاد ووصل إلى ما يريد تارة، ووصل إلى التّحريض أيضاً -التي هي سمته دائماً- تارة.

وهذا يقتضي -أيها الإخوة- أن نرتفع بسمو هذا الإسلام وأن نرتفع برفعة كلمة الله وكلمة التّوحيد التي هي شجرة ثابتة، وأن نرتفع بسمو وارتفاع الجنة عن كلّ ما يدنس التّعاون على البر والتقوى.

بهذا ربّما يستحضر في هذا المقام ما قاله إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى لما عيب عليه أنه لا يشتغل ببعض نوافل العبادات، قال للذي عابه: يا هذا إنّ الله فتح لبعض عباده باب الصّلاة -يعني صلاة النفل- وفتح لبعض عباده باب الصدقة، وفتح لبعض عباده باب الصيام، وفتح لبعض عباده باب الحج والعمرة، وفتح لبعض عباده باب الجهاد، وملازمة الثّغور، وفتح لبعض عباده باب العلم والتّعليم، وأنا ممن فتح الله لي باب العلم والتّعليم، ورضيت بما فتح الله لي.

وهذا المبدأ فيه إشارة تربوية كبيرة إلى التّكامل، وهذا التّكامل ينبغي أن يكون معه النّصيحة، التّكامل لا يعني السّكوت عن كل منهج أو كل طريقة، وإنما يعني الاجتماع على البر والتقوى وتسديد الناقص، ونصيحة الجميع على هذا الطريق.

هذا ولا شك أنّه منهج قويم في هذا الأمر.

الجهات الرّسمية الحكومية مع الجهات الأهلية لابد أن يكون بينها تكامل، وخاصة الجهات الشّريعة من مثل وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد التي ترى مع تقصيرها أنّه يجب أن يُفتح الباب للدعوة وفق منهج لآحِب واضح في كلّ ميدان نصرة لكلمة الله جلّ وعلا وثباتاً على ما أمر الله به وتحقيقاً لما أُسّست عليه هذه الدّولة السّعودية، وهذا يقتضي منّا أن يكون التّعاون ميداناً حقيقياً لا نظرياً ورقياً، وأن يكون التّعاون أيضاً في المطاوعة والمناصحة بما تعنيه كلمة المطاوعة والمناصحة شرعاً ذلك؛ لأنّه ما من عمل ميداني إلا ولابد فيه من نزعة اجتهد، وإذا ذمّ النّاس بعضهم بعضاً في الاجتهادات التي لا وُضوح في دفعها شرعاً، فإنه سيكون هناك بُعد عن التعاون عن البر والتقوى، ولذلك ما من نيّة صادقة إلا وستلوهما إذعانُ لله -جلّ وعلا-، وهذا يوجب على الجهتين الأهلية والحكومية أن يكون هناك تواصل أكثر، ومد لل جسور أكبر تحقيقاً للمراد العام

والكلمة التي قالها فضيلة الشيخ ناصر بن سليمان العمر وفقه الله أقولها أنا الآن بحروفها تامة دون أن أخرج منها حرفاً لأن هذا هو الطريق القويم والصراط المستقيم فيما يجب علينا الله جل وعلا: أيها الإخوة المسؤولين كبيرة والأمر عظيم وجل، والزمن سريع التغير، ولا نريد أن نأتي متأخرين، «فلا يزال قوما يتأخرون حتى يؤخرهم الله جل وعلا» كما في الحديث، وهذا وإن كان في الصلاة؛ ولكن بعمومه يشمل أشياء كثيرة، فنحن مأمورون بعدم التأخر في توصيل العلم للناس، وفي تسخير العلم لقضايا الناس، وفي الإفتاء بما يحتاجه الناس، وفي الدعوة التي نصل فيها إلى الناس، فالرُّسل -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في القرآن وكما في السُّير والأحاديث كانوا يغشون أقوامهم في نواديهم ويبلغونهم رسالة الله تعالى، وهذه رسالة فيها منزع لكل جهد إعلامي تصل به إلى الناس، وإذا كانت الكلمة اليوم تصل إلى الناس عبر وسائل تقليدية معتادة؛ لكن كلما كانت الكلمة تصل إلى الناس أكثر كلما كان إتيانها من الوسائل المشروعة متعين؛ لماذا؟ لأن الرسالة أذان ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٣]، الرسالة بشكل إطاري مختصر هي إعلام للناس بحق الله على العباد، وهذا يعني الاهتمام بكل وسيلة تصل بها إلى الناس.

قوم تنكبوا عن الإعلام -وأنا منهم- لأغراض شتى، ومن طلبة العلم من استفاد من الإعلام فأبلغ رسالة الله جل وعلا، وهذا هو المتعين في هذا الزمن تحقيقاً لأمر الله -جل وعلا- عبر القنوات الفضائية أو عبر الإذاعة أو عبر مواقع الأنترنت أو عبر الوسائل المختلفة ربما تأتي.

وهذا يصل بنا إلى نهاية الأمر وهو أن التعاون العام يجب معه أن يكون هناك تسديد لتحقيق الهدف، وقد جاء في «سنن أبي داود» بإسناد جيد أن النبي -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر إلى الجنة من صناعته يحتسبه، ومن برئ نبهه، ومن رمى به في سبيل الله» فالثلاثة دخلوا الجنة: منهم من صنع ولم يرم، ومنهم من برئ ولم يرم، فالمتحدث من طلبة العلم إذا تحدث للناس عبر وسيلة من الوسائل فهو مأجور، ومن خدمه في ذلك وسعى في جودة المنتج هو أيضاً شريك له في الأجر وفضل الله -جل وعلا- واسع.

وهذا يعطينا المعنى الواسع للاحتساب وللبر والعبادة فإن الاحتساب والبر والعبادة ليست للمباشر فحسب؛ بل الوسائل لها أحكام الغايات، فوسيلة المشروع مشروعة، فإن كانت واجبة فواجبة، وإن كانت مستحبة فمستحبة.

الثالث والأخير أن هذا الزمن فيه صراع أفكار، وصراع الأفكار صراع عقلي، والحججاج بين المختلفين يطول كما ناقش المشركون أنبياءهم فيما هو أعظم من مسائل الشريعة ألا وهو حق الله -جل وعلا- في عبادته وحده لا شريك له، هذا

الصراع في الأفكار يجب -أيها الإخوة- أن لا ينسينا أن أعظم إصلاح هو إصلاح القلب؛ لأن مسير الناس مدة زمن سنين قد تكون أحاديثهم فكرية عقلية ردًا وإثباتاً ومناقشة وعلماء قد يفسد القلوب فلا تخشع لله -جل وعلا- وهذا يعود بالضعف على الدعوة وحملتها، قد يؤول إلى انحراف الدعوة والمنهج إلى أمور فكرية وعقلية مجردة، أو يصل إلى رؤية مصالح ليست هي مصالح وإلى رؤية مفسد ليست هي مفسد فيهتز الوعي وإدراك معالم الشريعة.

نعم، هناك ثنائية كبيرة جداً في التربية: العلم والتزكية:

العلم والمعرفة بما في ذلك من تقرير الدلائل وتأسيس الأصول أو ردُّ الشبهات والأقوال على قسمي ذلك وهو خطاب في الغالب عقلي معرفي للعقل إدراكاً للوجود أو ردًا لما يخالفه؛ لكن القيد هو إصلاح المجتمع «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي القلب»، ﴿إِلَّا مَن أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

والمنهج الذي تحدث عنه فضيلة الدكتور في كلمة يقتضي التأمل لدى التربويين ولدى طلبة العلم والدعاة في مسألة المبالغة في المعلومات العقلية والمعرفية على حساب خشوع الأمر لله جل وعلا؛ لأن العقل لو تحرر ورُبيت الناس على تعظيم العقل انفلت منك في الأساس، وهو تعظيم السلوك والمنهج. وهذه قضية مهمّة في المنهج جدًّا، وأنا أرى بوادرها في بلادنا واسعة الظهور، وهو الاهتمام بالنقاشات العقلية المعرفية دون إحيات وخشوع فيما يأتون ويذرون لله جل وعلا، وإذا فارق المرء الخوف من الجليل سبحانه في تعامله مع الأفراد وفي تعامله مع القضايا، في تعامله مع المجتمع، وتحرك بمقتضى الفكر أو بمقتضى العقل أو بمقتضى تحقيق المعرفة أو تحصيل المعرفة دون رؤية إلى الدار والآخرة والإقبال على الله جل وعلا، فإنه ستؤتى المقاتل من الدين في الناس.

هذه كلمات هي حاشية لما ذكره الشيخ ناصر، ومع أن بعض العلماء يقول:

من اهتم بالحواشي ما حوئ شيئا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

كلمة

بمناسبة افتتاح مؤسسة ديوان المسلم

لفضيلة الشيخ

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

